

من أدب التاريخ

قصة غرام فاطمية

موضوع مسرحية بديعة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تقدم إلينا صحف القصور الإسلامية طائفة من القصص الغرامية الشائقة التي امتزجت بسير الخلفاء أو السلاطين؛ يدان هذه القصص المشرقة بالرغم من ألوانها المشجية المؤسسية أحياناً لا تحمل دائماً ذلك الطابع الروائي العنيف الذي يبدو في قصص الحب في القصور الغربية؛ ويرجع ذلك أولاً إلى روح العصور، وثانياً إلى تباين الخلال والنظم الاجتماعية؛ ففي القصور الإسلامية كان يغلب دائماً ذلك التحفظ الذي يسبغ ستار الصمت والكتمان على حوادث وسير لا تحمد إذاعتها وتتق آثارها بين الكافة؛ وكان نظام التسري الذي يعمر قصور الخلفاء والسلاطين بأسراب الجوارى الحسان من مختلف الأمم والأجناس يحول دون اضطراب هذه العواطف والنزعات العنيفة التي كثيراً ما تضطرم في قصور الغرب، وتحمل في طريقها عروشاً أو تؤثر في مصائر أمم ومجتمعات؛ ومن النادر أن نرى في التاريخ الإسلامي جارية أو خلية، حظية خليفة أو سلطان، تسيطر على أقدار الدولة ومصايرها بمثل ما كانت تسيطر غانية مثل بومبادور أو دوباري على أقدار فرنسا في عهد لويس الخامس عشر، أو نرى ملكاً وأمبراطوراً عظيماً كادوارد الثامن يهجر أعظم عروش الأرض وأجلها قدر آفي سبيل حب ليس فيه من الروعة والجمال ما يتناسب مع روعة التضحية التي أقدم عليها

يد أننا نظفر في صحف القصور الإسلامية مع ذلك ببعض السير الغرامية العجيبة التي تطبعها ألوان روائية تذكى الخيال إلى الذروة. ولولا أن الرواية الإسلامية تحجم في كثير من الأحيان عن الإفاضة في تلك السير الشائقة، وتكتفي بإيراد الروايات الموجزة عنها لكان منها تراث روائي ساحر لا يقل في روعته وجماله وتباينه عما تقدمه إلينا قصص الحب الغربية الشائقة مثال ذلك قصة الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله وحييته

البدوية فهي في الواقع نموذج ساحر من ذلك القصص الغرامي الذي يصلح بموضوعه ومناظره وألوانه موضوعاً لمسرحيات من الطراز الأول في سحرها وروعيتها

ولى الأمر بأحكام الله الخلافة وهو طفل في نحو السادسة من عمره سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) رفعه إليها أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه وزير أبيه الخليفة المستعلي، وجده المستنصر من قبل، والمتغلب على الدولة، والمستأثر بسلطانها؛ ونشأ الأمر في كنف هذا الوزير الطاغية، كما ينشأ جميع الأمراء الذين ليس لهم من الملك غير رسومه ومظاهره، محجوباً في قصره، مغموراً بأنواع الملاهي والمسرات؛ يد أنه نشأ مع ذلك طموحاً ينزع إلى السلطان والبطش فلما بلغ أشده، وشعر بوطأة المتغلب عليه أخذ يتربص به حتى استطاع أن يدير مصرعه، وقتل الأفضل سنة ٥١٥ هـ؛ وتولى مكانه المأمون البطائحي؛ وقبض مثل سلفه على السلطة بقوة وحزم، فلم يلبث أن لقي نفس مصيره، فقتل في سنة ٥١٩ هـ، واستأثر الأمر عندئذ بكل سلطة، وأطلق العنان لأهوائه وإسرافه وبذخه؛ وكان الأمر أميراً مرحاً، مضطرم النفس والأهواء، مشغوقاً بحياة اللهو والطرب، وافر السخاء والبذل، يعشق البذخ الطائل؛ وكان يهيم بالجوارى والحسان، لا يطبق الحياة دون حب وهوى، وكان يشغف بفتيات البادية بنوع خاص، وله مع إحداهن قصة غرام مؤثرة، تنقلها إلينا الرواية في ألوان ساحرة، فكأنما نقرأ فيها كما تذكر الرواية ذاتها فصلاً من فصول ألف ليلة وليلة، أو ما يشابهها من القصص العجيب المغربي

كان الأمر يهيم كما قلنا بفتيات البادية، ويرسل في أثرهن رسله وعيونه، يجوبون البوادي والنجوع، ويبحثون عن روائع الجبال الساذج في ثيايا الخيام وفي مهاد البداوة النقية؛ فنقل إليه بعضهم أنه عثر ببعض أحياء الصعيد بجارية عربية هي مثال رائع للجمال العربي آية في الحسن والرشاقة والظرف، أديبة شاعرة، وافرة الذكاء والسحر؛ وإلى هنا تبقى القصة عادية ليس فيها ما يثير الدهشة؛ يد أن الرواية تنجح بعدئذ إلى نوع من القصص الرائع، فتقول لنا إن الخليفة الأمر لما سمع بخبر هذه الفتاة البارة في الحسن وفي الجمال، أراد أن يراها بنفسه قبل أن يتخذ في شأنها أي إجراء، فتزيا بزى الأعراب وغادر قصره بالقاهرة، وسار إلى الصعيد، وأخذ يتجول بين الأحياء حتى وقف على

يا ابن مياح اليك المشتكى مالِك من بعدكم قد مُلكا
كنت في حبي مطاعاً آمراً نائلاً ما شئت منكم مدركا
فانا الآن بقصر موصل لأرى إلا حبيباً ممسكا
كم تشنينا باغصان اللوا حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعنا برملات الخي حيثما شاء طليق سلكا
تقول الرواية، فأجابها ابن مياح بهذه الأبيات

بنت عمي والتي غديتها بالهوى حتى علا واحبكا
يحت بالشكوى وعندى ضعفا لو غدا ينفع فيها المشتكى
مالك الامر اليه يشتكى هالك وهو الذي قد هلكا
شأن داود غدا في عصرنا مبدىا بالتية ما قد ملكا
ثم تقول الرواية : ووقف الخليفة الأمر على سر هذه المراسلة
وقرأ أبيات ابن مياح، فقال لو انه لم يسيء اليه في البيت الرابع
لرد الجارية الي حبه وزوجها منه

وأثارت هذه القصة نفس شاعر معاصر من بني طيء يدعى
طراد بن مهمل، فنظم أبيتاً ينحى فيها على الأمر باللائمة ويخاطبه
بما يأتي :

ألا بلغوا الأمر المصطفى مقال طراد ونعم المقال
قطعت الأليفين عن ألفه بها سحر الحى بين الرجال
كذا كان أباًؤك الأقدمون؟ سألت فقل لي جواب السؤال
فغضب الأمر حينئذ وقف على هذا الشعر، وقال جواب
السائل قطع لسانه على فضوله، وبعث في طلب طراد في احياء
العرب، ففر منه واختفى

ولبت الأمر بعد ذلك أعواماً : يطلق العنان لأهوائه، وينعم
إلى جانب حبيته العالية، ويتردد معها إلى منتزه الهودج. وكان
الأمر يثير سخط فريق من الزعماء ورجال الدولة بما جنح
إليه من تمكين النصارى من مناصب الثقة والنفوذ. وما كان
يعمن فيه من اللهو والبذخ والاستهتار بالرسوم والتقاليد، ففي
ذات يوم من أيام ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) ركب من
القصر كعادته إلى الهودج للتنزه، فلما وصل إلى رأس الجسر
الموصل إلى الهودج وثب عليه قوم قد كمنوا له، وأخذوه طعناً
بخنجرهم، فحمل جريحاً إلى قصر اللؤلؤة على مقربة من مكان
الجريمة، ولكنه لم يلبث أن توفى، ولم يجاوز الخامسة والثلاثين
وكان الأمر بأحكام الله شاعراً مجيداً، وله نظم قوى مؤثر
فن نظمته قوله :

حيها واستطاع أن يتصل بأهلها دون أن يعرفوه وأن يظفر برؤيتها
وتأمل محاسنها؛ فما أن رآها حتى اضطربت جوانحه بحبها، وأسرع
بالعودة إلى القاهرة وقرر في الحال أن يخاطب هذه الفتاة التي تيمنه
حبا، وأن يتزوج بها؛ وبعث الأمر إلى أهل الفتاة برغبته،
فأدروا إلى تحقيقها فرحين متبطين، وأرسلوا بالفتاة إلى القاهرة،
حيث حملت إلى القصر، وغدت في الحال زوجة للخليفة، وسيدة
البلاط الفاطمي

وإلى هنا ينتهى أول فصل في القصة، وهو فصل لا تنقصه
عناصر الخيال الممتع؛ ثم إن فتاة البادية العالية - وكان هذا
اسمها - بعد أن سكنت إلى حياة القصر الباذخة حينا، وأفاقت
من دهشتها الأولى، أخذت تشعر بثقل هذه الحياة الناعمة على
ما فيها من متاع ونعماء وترف مستمرة، وتبدو لها جدران القصر
العالية، وأبهاؤه الفخمة كأنها ظلام السجن، وأخذت تحن إلى
فضاء القفر الشاسع وهوائه النقي الساذج كما تحن الطيور في أقفاصها
إلى فضاء السماء، أو كما تحن الأسود المعتقلة إلى أحرارها وأدغالها،
رغم ما تتمتع به في سجنها من وافز العناية؛ فلما رأى الخليفة الأمر
ما أصاب حبيته من الاكتئاب والوحشة، دفعه الخيال إلى أن
يلتمس لها متعة الفضاء التي تنشده على طريقته الملوكية، فامر
أن تقام لها على النيل في جزيرة القسطنطين (الروضة) متنزها عظيما
يضم بستانا ساحرا وأجنحة ملوكية بديعة، وسمى هذا المتنزه
الرائع الذي لبث مدى حين من محاسن الدولة الفاطمية، بالهودج،
فكان للتسمية مغزاها في التشبيه بالهودج الذي هو خباء السفر
في البادية؛ وأنس روح البدوية الهائم مدى حين إلى الرياضة في
الهودج، والتمتع بمناظره الرائعة ونسيماته العليقة بيد أنها لم
تنس قط وهج القفر وسحر الفلاة

واليك فصلا ممتعا آخر من تلك القصة الغرامية الرفيعة.
لقد ظفرت «العالية» بنزو قلب صاحب الخلافة والعرش،
وغدت سيدة القصر والبلاط، ولكن ذلك لم يكن منتهى آمالها
وسعادتها؛ ذلك لأن قلبها البدوي المضطرب كان يخفق منذ أيام
البادية بهوى قى من بني عمومها يدعى ابن مياح. ربيت معه في
الحى منذ الطفولة، وكان قى رقيق الخلال وافر السحر، فلما
حملت إلى قصر الخليفة لم تخمد في قلبها جذوة حبه، ولبت في
قصرها تتجه بخيالها إليه : وفي ذات يوم هزها الشوق إليه، فبعثت
إليه من قصر الخليفة هذه الأبيات